

د. سمية صالح الشيخ*

Dr. SUMAIAH SALEH ALSHEIKH

*أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

جامعة أم القرى

الإيميل sshaikh@uqu.edu.sa

الملخص

وقد خرجتُ بالنتائج الآتية: اشتمال وصايا لقمان على أهم الأمور التي تُبرز مكانة الإنسان على هذه الأرض، وإبراز الوصايا لأهم القيم الإنسانية المنظمة لعلاقة الإنسان مع ربه، ومع الموجودات حوله. الكلمات المفتاحية: لقمان، الإنسان، الوصايا، الأخلاق.

تناول البحث مكانة الإنسان في الإسلام من خلال استعراضه لوصايا لقمان للإنسان الذي أشاد القرآن بحواره الأسري دون التطرق لمكانته المجتمعية، كما يكشف عن القيم الإنسانية التي اشتملت عليها الوصايا. وقد اتبعت في ذلك المنهج الوصفي التحليلي لشخصية لقمان ووصاياه لابنه، ثم الاعتضاد بالمنهج القرآني في حواراته الإنسانية.

Abstracts

This research addresses the status of the human being in Islam by reviewing the commandments of Luqman, the man whose family dialogue was praised by the Qur'an, without reference to his societal status. The study also reveals the human values encompassed within his counsel. I have followed a descriptive and analytical approach in examining the character of Luqman and his commandments to his son, supported by the Qur'anic methodology in its treatment of human dialogues.

The findings of the study are as follows: Luqman's commandments encompasses the most important matters that highlight the human being's status on earth. His advice also underscores the key human values that govern a person's relationship with God and with the surrounding beings.

Keywords: Luqman / Human Being / Commandments / Ethics

The status of the human being the commandments of Luqman

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي جعل القرآن كتاباً لا يُملُّ حديثه ولا يخلق جديده، إن أخبر كان صادقاً، وإن وعظ كان ناصحاً⁽¹⁾

أمّا بعد :

فإنَّ سور القرآن كلها مما يُجتنى قطفه، ويُستطاب ثمره، ومن تلك الثمرات: وصايا لقمان، تلك الوصايا التي قُطفت من ثمراتها الكثير من الدراسات، ولم تنته عجائبها بعد. ومن هذه العجائب: التفاتها للقضية الإنسانية، واهتمامها بالإنسان، حيث بُنيت الآيات على المقوم الأساس الذي تقوم عليه الحضارات ألا وهو الإنسان، بقيمته وقيمه. وإنَّ المتأمل للحديث القرآني عن شخصية لقمان يلاحظ مكانته التي رسمها كتاب الله، تلك المكانة التي أشادت بالحكمة التي حباه الله بها دون التفات النص لشخصه أو بيئته، وإنَّ دلَّ فإنما يدل على مكانة الإنسان في نفسه بغض النظر عن الاعتبارات الاجتماعية، أو القومية، وغيرها. كما تتابعت الوصايا في صقل الشخصية الإنسانية على الصعيد الشخصي والاجتماعي لتكون صانعة الأمجاد دينياً ودنيوياً: تلك الوصايا القيمة التي دفعني لاختيار هذا الموضوع، بالإضافة للأسباب الآتية:

أسباب اختياره:

- 1- إظهار مكانة القرآن الإرشادية في مجال صناعة الشخصية الإنسانية.
- 2- بيان القيمة الثقافية والتعليمية للقصص القرآني الإنساني.
- 3- إبراز الدور الثقافي لوصايا لقمان الحكيم في بناء الشخصية الإنسانية الصالحة.

مشكلة البحث:

يُستعرض البحث وصايا لقمان الحكيم لابنه؛ بُغية تسليط الضوء على المكانة الحقيقية للإنسان في الإسلام من خلال هذه الوصايا المهمة الصادرة من الأب لابنه داخل أرقى العلاقات الإنسانية، المتمثلة في الأسرة السوية.

⁽¹⁾ انظر: الحصري، إبراهيم علي، زهر الآداب وثمر الألباب، (140/1)، (بيروت، دار الجيل).

أهداف البحث:

يهدف إلى بيان الدور البارز لوصايا لقمان في إبراز مكانة الإنسان العظيمة في الإسلام، كما يهدف إلى لفت الأنظار إلى قيمة الإنسان في نفسه دون النظر للاعتبارات المجتمعية.

منهج البحث:

يعتمد على المنهج الوصفي التحليلي لوصايا لقمان لابنه، ثم الربط بين تلك الوصايا والحوارات القرآنية الإنسانية الأخرى.

تساؤلات البحث:

س1) كيف أبرزت وصايا لقمان مكانة الإنسان في الإسلام؟

س2) ما الهدف من ذكر القرآن لمواعظ لقمان دون التعريف بشخصيته؟

س3) لماذا اهتم القرآن بالحوار الإنساني الأسري بين أبي وابنه؟

س4) ما القيم الإنسانية التي استعرضتها وصايا لقمان في علاقة الإنسان مع الله، ثم في علاقته مع البشر؟

تبويب البحث:

المبحث الأول: مكانة الإنسان في الوصايا:

المطلب الأول: اهتمام القرآن بمواعظ لقمان الإنسان دون التعريف بشخصيته.

المطلب الثاني: اهتمام القرآن بالحوار الأسري بين لقمان وابنه.

المبحث الثاني: القيم الإنسانية في الوصايا:

المطلب الأول: بيان القرآن للقيم الإنسانية في علاقة الإنسان مع الله تعالى.

المطلب الثاني: بيان القرآن للقيم الإنسانية في علاقة الإنسان مع البشر.

الدراسات السابقة:

توجد الكثير من الدراسات في هذا الموضوع، والتي تنوعت ما بين رسائل علمية، أو أبحاث مختصرة في الدوريات العالمية؛ ولكثرتها واختلافها عما أنوي البحث فيه فسأكتفي باثنين منها، وهي:

1- لقمان الحكيم في ضوء الكتاب والسنة، عبد الله الغامدي، رسالة ماجستير، فرع الكتاب والسنة من قسم الدراسات العليا الشرعية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1982م.

وهي دراسة تفسيرية للوصايا، وقد أشار الباحث لاختلاف المفسرين في شخصية لقمان وابنه، مؤكداً اهتمام القرآن بالموعظة نفسها وعدم تطرقه فيما لا فائدة من ذكره، وركزت رسالته على دراسة أقوال المفسرين والشراح للوصايا.

2- وصايا لقمان العقدية والدعوية لابنه في سورة لقمان، غالب محمد الشاويش، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، م: 13، ع: 3، 2017م. وهي دراسة عقدية ودعوية لموضوعات الوصايا؛ بغية الاستفادة منها في تربية الأبناء.

وتختلفُ دراستي عنهما في ابتداء بحثي على التركيز على مكانة الإنسان في القرآن من خلال التأمل في الجوانب الإنسانية التي وردت في وصايا لقمان لابنه.

المبحث الأول: مكانة الإنسان في الوصايا:

المطلب الأول: اهتمام القرآن بمواعظ لقمان الإنسان دون التعريف بشخصيته.

من أعجب الأمور التي وردت في القصص القرآني إيرادها لكثير من القصص الإنسانية دون الحديث عن شخصية هذا الإنسان ومكانته الاجتماعية، وفي هذا ما لا يخفى من الدلالة على تنبيه القرآن لأهمية الإنسان نفسه، وإعلانه من القيمة الإنسانية دون الاهتمام بالاعتبارات الشخصية أو القومية، ف(القرآن الكريم هو كتاب الإنسان والإنسانية بحق، فالقرآن الكريم إما حديث عن الإنسان، أو إلى الإنسان، فما أنزل القرآن إلا ليُخاطب الإنسان، وكلمة الإنسان في القرآن تكررت كثيراً، وكذلك الخطاب بكلمة يا بني آدم، وهذا واضح لقارئ القرآن، والمتأمل في القرآن يجد أن أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن، خمس آيات من أول سورة العلق، ذُكرت كلمة الإنسان في اثنتين منها، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 1-5] ، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الإسلام عني بالجانب الإنساني أيما عناية، فكان الخطاب له⁽²⁾ والشخصية الإنسانية التي يُسلط البحث الضوء عليها هي شخصية لقمان التي نزل بها كلام الله تأكيداً لمكانته، (ليكون قدوة في تصرفاته وأقواله، فאלله آتاه الحكمة وفقهه في الدين وزاده علماً ومعرفةً وتقوى وصدق الحديث، فكان من أولياء الله الصالحين)⁽³⁾. وهذا الإنسان لم تهتم النصوص الشرعية في القرآن أو السنة بالحديث عن مكانته الأسرية أو الاجتماعية أو المهنية، حيث تضاربت أقوال المفسرين في كل ما يتعلق بهذه الشخصية، و(من المعلوم أن الإبهام في القرآن من أسبابه: عدم تعيين فائدة من الذكر، كقوله سبحانه: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقُرْيَةِ﴾ [الأعراف: 163]، وفي هذا التوجيه الكريم ما يدعونا إلى نبذ الأمور السطحية، والاهتمام بجوهر الموضوع)⁽⁴⁾. حيث أعطانا الإسلام بذلك درساً بعدم توجيه الاهتمام للأشخاص، وتركيز أنظار الناس لما هو أولى.. أي إلى علم الإنسان ومعرفته في رسالة واضحة الدلالة على ترتيب الأولويات عند تقييم الناس. وقد لفت انتباه الباحثة تضارب الروايات الكبير في كل ما يتعلق بشخصية لقمان رغم امتداح الله له وإيراده لوصاياه، ولو كانت هذه الأمور من الأشياء المهمة

(2) متولي، محمد عبد العزيز، الإنسانية في ضوء السنة النبوية: دراسة تأصيلية تطبيقية، ص309، (مجلة كلية الدراسات الإسلامية، دمنهور، ع:7، الإصدار:2، م:4، 2022).

(3) دسة، جعفر عايد، وصايا لقمان لابنه في القرآن الكريم: الدلالات والآثار، ص57، مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، م:3، ع:7، 2023.

(4) لقمان الحكيم في ضوء الكتاب والسنة، عبد الله الغامدي، ص16، رسالة ماجستير، فرع الكتاب والسنة من قسم الدراسات العليا الشرعية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1982م.

لَمَّا سَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا هَكَذَا ، وَلَكِنَّهُ دِينَ الْإِنْسَانِيَةِ الَّذِي يَهْتَمُّ بِالْإِنْسَانِ نَفْسَهُ.

ففي قصة لقمان وقع الاختلاف أولاً في مصدر علمه، حيث اختلف المفسرون في شخصيته هل هو نبي؟ أم مجرد حكيم؟، حيث دلتنا الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12]، على قيمة الإنسان حينما يسير وفق ما أراد الله له، فقد نقلت لنا الآيات وصايا لقمان ذلك الرجل الذي أنزل الله سورة كاملة في كتابه العزيز باسمه، ومع ذلك فقد اختلف العلماء في اسمه وقبيلته ومهنته ونبوته، فهذا الرجل لم ترد تفاصيل اسمه أو حياته أو مكانه الذي وُلد به لا في القرآن ولا في السنة؛ مما يعطينا دليلاً واضحاً على قيمة الإنسان المتعلم، وقيمة العلم بغض النظر عن قائله، حيث اختلف المفسرون في شخصية لقمان فقيل: كان نبياً، وقيل: كان رجلاً صالحاً، وقيل كان حكيماً؛ فلنسنا نشك أنه كان حكيماً؛ لقول الله عز وجل: (ولقد آتينا لقمان الحكمة) (5)، (والجمهور على أن لقمان عليه السلام لم يكن نبياً) (6)، إذاً: هو مجرد إنسان صالح. كما وقع الاختلاف في نسبه، فقيل: هو لقمان بن باعوراء ابن ناحور بن تارح، وهو آزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان ابن عنقاء بن سرون. وقال وهب: كان ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب. وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مبعث داود (7). ووقع الاختلاف أيضاً في مكان نشأته، فقيل: كان نوبياً من أهل أيلة، وقيل كان قاضياً في بني إسرائيل، وقيل كان حبشياً غليظ المشافر مشقق الرجلين (8). كما وقع الاختلاف أيضاً في مهنته، فقيل: (كان نجاراً، وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان راعياً) (9). وكل هذا الاختلاف في شخصه وعدم تركيز النصوص على التعريف بشخصيته دليل على قيمة الإنسان نفسه بغض النظر عن مكانته الاجتماعية، فالقرآن يُبهِننا على قيمته الحقيقية المتمثلة في الحكمة التي وهبها الله له، ومن ثم فيجب على صنّاع الحضارات وراغبي الإصلاح الالتفات للإنسان الذي رَسَمَ له الإسلام طريق التكريم في أبهى صوره دلالة على قيمته الكونية، حيث لم يكن هذا منهج القرآن في قصة لقمان فقط، بل تعدد

(5) انظر: ابن كثير، إسماعيل عمر، تفسير القرآن العظيم، (298/6)، (ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1998). الزجاج، إبراهيم السري، معاني القرآن وإعرابه، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، (195/4)، (ط1، بيروت، عالم الكتب، 1988).

(6) البخاري، محمد إسماعيل، صحيح البخاري، المحقق: مصطفى البغا، برقم 42، (1261/3)، (ط5، دمشق، دار ابن كثير، دار اليمامة، 1993).

(7) انظر: القرطبي، محمد أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (59/14)، (ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1964).

(8) انظر: المرجع نفسه.

(9) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، (195/4).

القصصُ القرآني لشخصيات إنسانية دون تعرُّض النصوص في القرآن والسنة للمعلومات المتعلقة بأشخاصهم وأنسابهم وبيئاتهم، ومنها قصة ذي القرنين، حيث اختلف في نبوته، فقيل كان ملكاً ملك الفرس والروم، وقيل كان عبداً محباً لله ومخلصاً لدعوته⁽¹⁰⁾. وقد سأل ابن الكواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (فقال: ما كان ذو القرنين، أملك كان أو نبي؟ قال: لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولكنه كان عبداً صالحاً، أحبَّ الله فأحبه، وناصح الله فنصحه، ضُرب على قرنه الأيمن فمات، ثم بعته الله عز وجل، ثم ضُرب على قرنه الأيسر فمات)⁽¹¹⁾. كما ذكر الإمام الرازي اختلاف الناس في شخصيته على عدة أقوال: (الأول: الإسكندر بن فيلبوس اليوناني. الثاني: إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبيد بن أفریقش الحميري فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها، ... الثالث: أنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة)⁽¹²⁾. وعن وهب بن منبه اليماني أن ذا القرنين (رجلٌ من الروم، ابن عجوزٍ من عجائزهم، ليس لها ولدٌ غيره، وكان اسمه الإسكندر)⁽¹³⁾. كما وقع الاختلاف أيضاً في زمانه الذي ظهر فيه، (فقال قومٌ: كان بعد موسى. وقال قومٌ: كان في الفترة بعد عيسى، وقيل: كان في وقت إبراهيم وإسماعيل. وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم)⁽¹⁴⁾. ويُستفاد من قصته في الجانب الإنساني تركيز القرآن على الاستفادة من قصته دون الاهتمام بشخصيته ونسبه وزمانه، فمدار الأمر على قيمته الأخلاقية وقيمته الدينية، لا نسبك وموطنك. أضف إلى ذلك أن القرآن وصل لما هو أكبر في هذا الجانب، حيث قصَّ علينا قصص بعض الصالحين بدون ذكر حتى لأسمائهم؛ توجيهاً للاهتمام بأعمالهم، فيقول سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُْوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]. ويقول في موطن آخر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: 28]. كما أورد النبي صلى الله عليه وسلم في سنته بعض الأحاديث التي خلت من أسماء أصحابها، ومنها ما ورد على لسان أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان رجلٌ يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت مُعسراً فتجاوز عنه، لعل الله أن

(10) انظر: الطبري، محمد جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، (93/18)، (ط1)، القاهرة، مصر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، (2001).

(11) الطحاوي، أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، (5/ 121)، تحقيق: شعيب الأنطوط، (ط1)، مؤسسة الرسالة، (1994).

(12) الفخر الرازي، محمد بن عمر التيمي، مفاتيح الغيب، (21/ 493-494)، (ط3)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1420).

(13) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، تأويل مختلف الحديث، ص196، (ط2)، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراف، (1999).

(14) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (11/ 47).

يتجاوز عنّا، قال: فلقي الله فتجاوز عنه⁽¹⁵⁾. وهذا يدل على مكانة الإنسان وكرامته الشخصية في الإسلام، فـ(الكرامة الإنسانية هي إحدى القيم الحضارية في رسالة الإسلام، والإنسان فيها محور الحضارة وعمادها، فلا سبيل إلى الحضارة والرفي إلا بتسيخ كرامة الإنسان كما جاء بها الإسلام)⁽¹⁶⁾. حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ طَيِّبَاتٍ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، (وهذا التفضيل للإنسان والإعلاء لشأنه من بين المخلوقات جميعاً جعله يختص بقطبية وجودية تظهر في قصة خلق آدم وما وقع فيها من أحداث؛ فقد بينت هذه القصة أن قدوم الكائن الجديد أحدث تغييراً جذرياً في النسب بين الموجودات، بحيث أصبح القطب الوجودي الذي ترنو إليه المخلوقات جميعاً، وتتحدد قيمتها بقدر ما تقترب منه أو تبعد عنه. وما سجود الملائكة لآدم -وقد كانوا أشرف المخلوقات وتُلبهم بذلك الرضا الإلهي، وامتناع إبليس من السجود وبئله اللعنة والخسران- إلا رمزاً لتحول قطبية المخلوقات لتكوّن في مصلحة هذا القادم الجديد⁽¹⁷⁾. ومكانة الإنسان في الإسلام تحترم قيمته وترسم حدوده وعلاقته مع الكون حوله، فلا ترفعه لمقام الأنوذية ولا تنزل به للبهيمية. وتختلف هذه النظرة للإنسان بين الإسلام والغرب تحديداً في طبيعة العلاقة بين الله وهذا الإنسان، فالله عند المسلمين (يقع في مركز رؤيتهم للعالم ومحور هذه الرؤية. أي أن الإنسان بالمعنى الحقيقي شخص يصنع حياته وفكره وعمله على الخلو والخلوص والإخلاص في سبيل الله الواحد، ويُلورها على هذا الأساس. ومن هنا كان توجهه الخالص إلى الله وتقواه التي لا شائبة فيها، منبعاً لكرامته الإنسانية ومصدراً، مثلما أشارت الآية الكريمة إلى ذلك بقولها: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: 13]. غير أن الصورة التي للإنسان في الرؤية الغربية للعالم، هي على العكس من ذلك تماماً. فالفكر الغربي يُضفي على الإنسان صفة "المحورية"، مع الإيمان بأن الإنسان معياراً لتقييم وقياس كافة الأشياء⁽¹⁸⁾. كما أن الإنسان في الإسلام وسط في مكانه في هذا الكون، لا استعلاء، ولا تباعد وتحلٍ عن الحياة وضياحٍ لمعنى وجوده وقيّمته فيها، حيث حمل الإسلام هذا الإنسان المسؤولية في الحياة، اعترافاً بمكانته في هذا الوجود، فكل شخص في هذه الحياة له دور لا يستطيع أن يؤدّيه غيره، (هذا التفرد الذي يُميّز كل فرد عن غيره والذي

(15) البخاري، محمد، صحيح البخاري، المحقق: مصطفى البغا، رقم 3293، (3/ 1283).

(16) محمد، أحمد جمعة، الكرامة الإنسانية في التصور الإسلامي وتطبيقاتها الفقهية: دراسة مقارنة، ص 1696، (بحث مدعوم من خلال البرنامج البحثي العام بمبادرة البحث العلمي، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية).

(17) شبلي، هجيرة، التربية القرآنية للإنسان والدفع الحضاري: عقيدة تكريم الإنسان وتضميناتها التربوية عند عبد المجيد النجار أنموذجاً، ص 115، (مجلة إسلامية المعرفة، س: 22، ع: 87، شتاء 2017).

(18) داماد، مصطفى محقق، الحقوق الإنسانية بين الإسلام والمجتمع المدني، ص 96-97، (ط1، بيروت، لبنان، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2001).

يُعطي الفرد معنىً لوجوده، ينطوي على عملٍ إبداعي، بقدر ما ينطوي على الحب الإنساني. وحينما يتحقق الشخص من استحالة أن يحلَّ أحدٌ في مكانه، فإنَّ هذا يسمح بظهور المسؤولية بكل ضخامتها وأبعادها مما يحمله الشخص لأجل وجوده واستمراره وبكلِّ ما يحمله من عظمة. إنَّ الإنسان الذي يُصبح واعياً بالمسؤولية التي يحملها إزاء إنسانٍ آخر ينتظره بشوقٍ وحنان، أو إزاء عملٍ لم يكتمل، سوف لا يكون قادراً أبداً على التفریط في حياته. فهو يعرف سبب وجوده ويشعر بالغاية منه، ويكون قادراً على تحمُّله بأي شكلٍ من الأشكال⁽¹⁹⁾. ولا تقتصر قيمة الإنسان في الإسلام على الناحية الوجودية المعرفية، ولكنها تتجلى في كل النواحي التشريعية والأخلاقية أيضاً التي اهتمت بما يتناسب مع طبيعته ويتمشى مع فطرته، تلك النواحي التي تحتاج لرسائل علمية مطولة تكشف تلك القيم الإنسانية في التشريعات الربانية، ويكفي في هذا المقام الإشارة لبعضها حتى تتضح مكانة الإنسان في الإسلام، ومن أهم تلك الجوانب:

1- الخلافة التي تُعد من أعظم مهمات الإنسان في الكون، ومن أهم القيم الحضارية الكونية: قيمة الاستخلاف، حيث أنزل الله الإنسان ليكون خليفته على هذه الأرض؛ لِيُنشئ الحضارات ويُقيم الممالك، وقد وردت آياتٌ عدة في القرآن الكريم تُوضح مركز الإنسان في هذا الكون ودوره الحضاري، وهذه الآيات وإن اختلفت في ألفاظها ومناسباتها، إلا أنها تلتقي جميعاً عند ربط دور الإنسان بهذا الاستخلاف وقياسه بمدى تحقيقه وفق منهج الله، وأولها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، والمعنى: أنه خليفة الله في أرضه لإقامة دينه، يقول ابن كثير: (يُخبر تعالى بامتثاله على بني آدم بتوحيه بذكورهم في الملاء الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" أياً: واذكر يا محمد، إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك)⁽²⁰⁾، كما ورد في آياتٍ أخرى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: 62]، وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، استناداً لقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس الإنساني من يفعل ذلك⁽²¹⁾. والإنسان جزءٌ من هذا الكون، لكنه تميّز عنه بعلاقته الخاصة مع الخالق، فهو المكلف بحمل الأمانة التي شقَّ على السماوات والأرض احتمال مسؤوليتها، واحتملها هو؛ استناداً لما خصَّه الله

⁽¹⁹⁾ فرانكل، فكتور، الإنسان يبحث عن المعنى: مقدمة في العلاج بالمعنى، التسامي بالنفس، ترجمة: طلعت منصور، ص111، (ط1، الكويت، دار القلم، 1982).

⁽²⁰⁾ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (1/123).

⁽²¹⁾ انظر: المرجع نفسه، (1/124).

به من مدركاتٍ عقليةٍ تمكنه من الاستقادة بما سَخَّر له في الكون من منافع، لا السيطرة على ما فيه والتعالي على خالقه.

إِذَا: فليست ملكات الإنسان هي التي سَخَرَتْ له الكون، ولكِنَّهُ سَخَّرَ لِلْإِنْسَانِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وليس لتمييز الإنسان دخلٌ في ذلك التسخير، ولا يمكن له أَنْ يَسْتَقِرَّ نَفْسِيًّا وَيَحْقُقَ الْخِلَافَةَ الْفَعْلِيَّةَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ حُدُودِهِ مَعَ خَالِقِ هَذَا الْكَوْنِ، ذَلِكَ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ شَأْنٌ مِنْ شُؤْنِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: 109]، فَهُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْكَوْنِ بِمَا فِيهِ الْإِنْسَانُ، وَهُوَ الَّذِي مَيَّزَهُ بِالْعَقْلِ لِيَسْتَطِيعَ كَشْفَ أَسْرَارِ الْكَوْنِ الْمَوْدَعَةِ فِيهِ، حَتَّى تَزِيدَهُ تَسْبِيحًا لَخَالِقِهِ وَتَمْجِيدًا لَهُ سُبْحَانَهُ، فَيَمْضِي فِي الْأَرْضِ مَعْمَرًا لَهَا وَفُقْ قُدْرَاتِهِ الْمَحْدُودَةِ، وَمُسْتَسْلِمًا لِقَوَانِينِ الْكَوْنِ الَّتِي لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى تَغْيِيرِهَا؛ لِأَنَّهَا بِتَدْبِيرِ اللَّهِ، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102].

2- الإنسان محور الأديان السماوية ، فما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب إلا لهاديته وإرشاده ، فقد تكفل الله سبحانه وتعالى منذ إنزال أبي البشر آدم للأرض بأنه لن يتركهم هملاً ، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38].

كما تحدث القرآن أنه لم تخل أمة من رسالة ربانية هادية لهم ، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24]. وهكذا توالى الرسل، وتتابع الكتب، وكلها تدور حول محور واحد، هو الإنسان ، بما يُحقق له السعادة في الدنيا والآخرة.

3-التسخير الكوني له دون سائر المخلوقات، حيث كَرَّمَه بتسخير ما في الكون له وتذليله لمنفعته الإنسانية، حيث يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]. كما خاطب القرآن الإنسان بأن الخالق لهذا الكون قد خلق هذه الأشياء وجعلها تحت سيطرة ذلك الإنسان، تماشياً مع الخلافة الكونية المتجهة للإعمار لا التدمير، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: 71-73]، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَّوَسَّسًا وَلِتَسْوُوا فِيهِ سَفَرًا وَلِئَلَّامُنَ مِنْكُمْ غُلَامٌ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: 14]، واللافت للانتباه في الخطاب القرآني للإنسان عن مواضع التسخير ربطه الدائم بين ما منحه الله، وبين العمل المطلوب منه تجاه هذه النعم؛

ليُنَبِّهه القرآن لأمرين: الأول: تعريفه الإنسان بأن هذه النعم من عند الله لا بقدرة الإنسان وذكائه، الثاني: بيانه للطرق الصحيحة للانفعال بها وفق ما هيأها الله له، حتى لا يستغلها فيما يتناقض مع الخلافة والأمانة الربانية التي مُنحت له. وهكذا حدّد الإسلام ماهية الإنسان وقيّمته ورسم طبيعته علاقته بالموجودات التي خلقها حوله منذ أن أهبطه الأرض، ولم يتركه هملًا لحيرته وأفكاره المضطربة حول نفسه والكون الذي يعيش فيه، فالإنسان دون وحي من الله لن يتعرّف حتى على نفسه، حيث عانت الفلسفات الإنسانية من عدم قدرتها الوصول لطبيعة الإنسان، بل لقد زادت غموضاً، يقول شيلر: (ما كان الإنسان في فترة من فترات المعرفة الإنسانية كما هو اليوم في عصرنا هذا مثار مشكلة لذاته؛ لقد أصبحت لدينا انثروبولوجيا علمية وأخرى فلسفية وثالثة لاهوتية، وما من واحد من هذه الفروع يعرف ما لدى الفرع الآخر. لذلك لم نعد نمتلك فكرة واضحة ثابتة عن الإنسان، فإنّ ازدياد تكثّر العلوم التي تنهمك في دراسة الإنسان قد زاد ففكرتنا عن الإنسان فوضىً وغموضاً بدلاً من أن يُوضحها)⁽²²⁾. والإنسان الغربي في سعيه الدؤوب لمعرفة طبيعته وإبراز مكانته الوجودية حاول أن يجعل من نفسه أساساً ومقياساً لكل شيء حوله، ولكنه اصطدم بأن الواقع عكس تلك الفكرة، حيث اكتشف أنه (غريب في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن يُنظّم دنياه بنفسه؛ لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته، ومن ثم فإنّ التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجِمامد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية، فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قومٌ نساء؛ لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً.. إنّ الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها)⁽²³⁾.

(22) كاسيرر، أرنت، مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمة: إحسان عباس، ص 62-63، (بيروت، دار الأندلس، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ببيروت ونيويورك، 1961).

(23) كاريل، ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، تعريف: شفيق فريد، ص 41، (ط3، بيروت، مكتبة المعارف، 1980).

المطلب الثاني: اهتمام القرآن بالحوار الأسري بين لقمان وابنه.

مما يدل على مكانة الإنسان في وصايا لقمان رعاية القرآن لهذا الحوار الأسري الراقى بين الأب وابنه، حيث اهتم القرآن بما نُصح به الوالد ابنه، وبيَّنه في خطابٍ ربَّاني يُقرأ إلى قيام الساعة؛ تنبيهاً على مكانة الإنسان الذي يَرعاه الشرع صغيراً، مُطالباً والديه بتعهد رعايته وحمايته، ويحترمه كبيراً، أمراً من حوله بتوقيره وخدمته. وقد بيَّن القرآن للناس قيمة التوجيه الوالدي للابن في تقويمه وإصلاحه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنُيْ﴾ [لقمان: 13]، والآية (عطفٌ على معنى ما سبق وتقديره: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره؛ وهذا لأنَّ علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكماً لغيره فقلوه: "أَنْ اشكر" إشارة إلى الكمال، وقوله: "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ" إشارة إلى التكميل، وفي هذا لطيفة، وهي أَنَّ الله ذَكَرَ لقمان وشَكَرَ سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب، فإنَّ إرشاد الولد أمرٌ معتاد، وأمَّا تحمل المشقة في تعليم الأبعد فلا⁽²⁴⁾. وقد نبَّه القرآن لما ينبغي أَنْ يتَّوجه له الآباء بقوله: "لابنه"، ثم قال: "وَهُوَ يَعِظُهُ"، توضيحاً للوسيلة الناجعة، (أي يُذَكِّرُهُ ويؤدِّبه)⁽²⁵⁾، ثم نقل لفظه لولده، "يا بني"؛ تلطفاً وتحبباً وتنبيهاً للولد بصلة القرابة التي تجعل الوالد دائم البحث عما فيه مصلحة لابنه. ومن الدلالات المهمة على قيمة الإنسان في أسرته ورعاية الإسلام لهذا المحضن التربوي له حتى ينشأ إنساناً سوياً صالحاً: اهتمام القرآن بالوصايا والحوارات الأسرية بين الوالدين في كثيرٍ من القصص غير قصة لقمان، حيث أورد القرآن قصة نوح عليه السلام وحواره لابنه قبل الطوفان حينما أراد أن يركب معه السفينة؛ لينجو، فقال سبحانه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْنِيْ اَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِيْنَ ۝۴۴ قَالَ سَوَايَ اِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ اَيُّوْمَ مِنْ اَمْرِ اللّٰهِ اِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِيْنَ ۝۴۵﴾ [هود: 42-43].

كما التفت القرآن لمشاعر الأبوة، ووصف لوعة الأب المفجوع خوفاً على مصير ابنه في الطوفان: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ اَهْلِيْ﴾ [هود: 45]. ومن الآيات الأخرى الدالة على إنسانية الإسلام اهتمامها بوصايا الأنبياء لأبنائهم وتعهدهم برعايتهم وإصلاحهم، ومن ذلك وصية نبيي الله إبراهيم ويعقوب لأبنائهم بالثبات على الإسلام، حيث يقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْ بِهَا اِبْرٰهِيْمَ بَنِيَّ وَيَعْقُوْبَ يٰۤاِبْرٰهِيْمُ اِنِّ اللّٰهُ اَصْطَفٰى لَكَمُ الدِّيْنَ فَلَا تَمُوْنَنَّ اِلَّا وَاَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ ۝۱۳۱ اَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ اِذْ حَضَرَ يَعْقُوْبَ

(24) الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، (25/ 119).

(25) الماوردي، علي البغدادي، تفسير الماوردي: النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (333/4)، (بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية).

أَلَمُوتْ إِذْ قَالَ لِإِسْنِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَهْمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَاقَ
إِلَهُهَا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ [البقرة: 132-133]. كما يدل على اهتمام القرآن بهذه العلاقة
الإنسانية نقله لدعوات الوالدين لأبنائهم، أو العكس، حيث نقلت الآيات دعوة إبراهيم المشفقة على
أبنائه من الشرك، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْعَلْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
﴿١٣٥﴾ [إبراهيم: 35]. كما تعرضت آيات القرآن الأخرى لدعوات الأنبياء لوالديهم، حيث دعا نوح
لوالديه بالمغفرة، في قوله سبحانه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: 28]، وكل ذلك دلالة على قيمة
الإنسان في الإسلام، حيث راعى الإسلام هذا الإنسان والداً وولداً، ناقلاً لوصاياهم ودعواتهم، ومراعياً
لخلجات شعورهم ونبضات قلوبهم تجاه هذه العلاقة الأسرية الطاهرة. ومن أقوى الأدلة على مراعاة
الإسلام للإنسان بغض النظر عن ديانتها: علاقة الابن بوالده الكافر، حيث نقل القرآن لنا حواراً أسرياً
بين أبي وابنه يُشابه حوار لقمان في شفقتة ونصحه، ولكنه يختلف معه في رتبة الناصح والمنصوح، ففي
هذا الموضوع كان الابن ناصحاً وموجهاً بألطف أسلوب راعى فيه مكانة الوالد وقدره، فقد لفت القرآن
الانتباه في هذا الحوار إلى مكانة الوالد الإنسانية بغض النظر عن ديانتها، فوالدُ نبي الله إبراهيم عليه
السلام كان كافراً بما يدعو إليه ابنه من عبادة الله تعالى، ومع ذلك نقل القرآن رُقي الخطاب وجمال
الحوار الذي عبّر عن قيمة الوالدية رغم اختلاف الأديان، فهل هناك دينٌ غيره أعلى من مكانة إنسانٍ
يختلف معه ديانةً مراعيّاً لحقه ومهتماً لأمره؟ لا، ولكنه دين الإنسانية. وفي ذلك يقول سبحانه عن
إبراهيم وحواره لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴿١٣٦﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي
فَدَجَأَ مِنِّي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَوْ يَأْتِيكَ فَاتَّبِعَنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٣٧﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٣٨﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١٣٩﴾﴾ [مريم: 42-
45]، فهذا نبي الله إبراهيم توجه بالنصح إشفاقاً وخوفاً على من رباه صغيراً، حيث كانت (أول دعوته
لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة)⁽²⁶⁾. كما خاطب والده بصفة
الوالدية تحببياً وتلطفاً وتذكيراً لوالده بأن الرابط الفطري بينهما يدفعه لإخلاص النصح له، حيث

(26) ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل، قصص الأنبياء من البداية والنهاية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (170/1)، (ط1، القاهرة، مطبعة دار التأليف، 1968).

(أراد تبصير أبيه بما الأب عليه من الضلال بالطف وجه، واستعطفه ب"يا أبت")⁽²⁷⁾. خطاب بر واستعطاف رغم كفره⁽²⁸⁾.

ولم يتوقف اهتمام القرآن بالحوارات الأسرية الأبوية، بل اهتم بالحوارات الزوجية رعايةً منه للإنسان نفسه رجلاً وامراً، فكلاً الزوجين يشعران بالحاجة للاهتمام والود ومنح الحقوق حتى تكون العلاقة الزوجية علاقة راقية تحترم إنسانية الطرفين وحاجتهم المشتركة للمكانة الإنسانية في ظل هذه العلاقة العظيمة، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة، حينما نُقل لنا القرآن تعامله الرائع مع خطأ الزوجة التي لم يُعنفها ويخدش ما بينهما من ودٍّ، ولم يتناس مكانتها الزوجية في خضم غضبه من خطئها، بل أبدى بعض فعلها وترك مجادلتها في بعضه الآخر؛ رغبةً في عدم إحراجها، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَسْرَأْتَنِي إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝﴾ [التحریم: 3]، كما أعطانا القرآن درساً آخر مهماً في إصلاح العلاقات الإنسانية، بعدم الاهتمام بالشخص، وتركيز الانتباه للفعل المراد تقويمه، (فالقرآن الكريم لم يخبرنا من هي الزوجة التي أسر لها الرسول صلى الله عليه وسلم وأفشت سره، وإنما أخبرنا عن الحادثة)⁽²⁹⁾؛ تنبيهاً لمراعاة الجانب الإنساني الشعوري لدى الزوجة في بيئة كانت قبل الإسلام لا تهتم بإنسانيتها في كل النواحي غالباً.

إذاً: يُلاحظ في كل هذه الوصايا الأبوية والزوجية التي اهتم الله سبحانه بنقلها لنا دليل على رعاية الإسلام للبيئة التي تحتضن الإنسان، حيث رعت البيئة من خلال التشريعات التي فرضتها ابتداءً قبل تكون الأسرة منذ الخطبة، ثم رعت هذه الثمرات من خلال ما أوجبه لها من حقوق، ليختم القرآن ببناء الحصين لهذا الإنسان باهتمامه بنقل صورة النماذج المشرقة التي فهمت طبيعة العلاقة الإنسانية وسعت لاحترامها وإخراج الإنسان الصالح في نفسه والمصلح لمجتمعه. وأين هذا البناء الراسخ من ما نراه في الغرب من محاولات جندرية للقضاء على مؤسسة الزواج وإلغاء قدسية هذه الصورة الوحيدة الصحيحة لبناء الأسرة لتحل محلها العلاقات الشاذة التي لا يُراعى فيها مكانة زوج، أو حق طفل، حيث حذرت العديد من الدراسات الغربية من تناقص أعداد الغربيين؛ لانهدام مؤسسة الزواج وكثرة العلاقات المثلية

(27) السخاوي، علم الدين، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: موسى مسعود، أشرف القصاص، (516/1)، (ط1)، دار النشر للجامعات، (2009).

(28) انظر: ابن عطية، عبد الحق الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام محمد، (18/4)، (ط1)، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422 هـ).

(29) محمود، هناء فرغلي، الأبعاد التربوية لآيات الحوار الأسري في القرآن الكريم: دراسة تحليلية، ص360، مجلة كلية التربية، جامعة أسيوط، ع:49، ديسمبر 2021.

التي حاربتُ المسيحية في طريقها حتى تستطيع أن تنمو في ظل علمانية متفلتة من كل القيود، منادية بأخلاقية العلاقات الشاذة، ومجرمةً للدين المسيحي الذي ينكرها، (وفي الوقت الذي بدأت فيه المسيحية تموت في الغرب، حدث شيء آخر، لقد بدأت الشعوب الغربية تتوقف عن إنجاب الأطفال؛ وذلك لأن الارتباط بين الإيمان الديني وبين إنجاب العائلات الكبيرة هو ارتباطٌ مطلق⁽³⁰⁾). وقد أدى ذلك كله للتفكك الأسري والضياع الحقوقي لذلك الإنسان الذي سيخرج للحياة وسط كل هذا الفوضى الأخلاقية.

المبحث الثاني: القيم الإنسانية في الوصايا:

المطلب الأول: بيان القرآن للقيم الإنسانية في علاقة الإنسان مع الله تعالى.

أولاً: نسبة الفضل لله عز وجل:

لقد اشتملت وصايا لقمان على الطريقة الصحيحة لتعامل الإنسان مع رب الكون وخالق هذه النفس البشرية، حيث وضحت الآيات طبيعة العلاقة بين هذا الإنسان المخلوق وبين خالقه؛ رعايةً منها لهذا المخلوق المكرم حتى لا يضل، حيث يقول الله في بدايتها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12]. فنسب الفضل له سبحانه، فهذه الحكمة التي منحها لقمان قد وهبها الله له ابتداءً، (كلُّ ما بنا من نعمٍ فمنهُ سبحانه وتعالى، فاله النعمة، وله الفضل، وله الشاء الحسن. فالحكيم حكيمته من الله عز وجل، والعالم علمه من الله⁽³¹⁾). وفي معرفة الإنسان بأن كل ما لديه من مواهب هو منحة خاصة من خالقه وضع لهذا الكائن في موضعه الطبيعي من الخارطة الكونية، فلا يتعالى الإنسان بما لديه من قدرات؛ لأنه يعلم يقيناً أنها من عند الله تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُرِّه مِنْ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]. أضف إلى ذلك أن معرفة الإنسان بذلك يُنمي لديه الوازع الشرعي الضابط لأفعاله وممارساته تجاه الكون، فلا يستعمل ما سخره الله له في الكون للتدمير للثروات الطبيعية التي منحها الله له؛ لأنه يعلم أن الله سخرها لأجل الانتفاع الصحيح منها. ومن أول الأمور المساعدة له على الانتفاع بتلك النعم شكر الباري سبحانه عليها، ولقد اشتملت وصايا لقمان على فضيلة الشكر للمنع سبحانه على آلائه، حيث تقول الآيات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: 12]. (أشكر لله)، أي: (أمرنا أن يشكر الله عز وجل

⁽³⁰⁾ بوكائن، باتريك جيه، موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، نقله للعربية: محمد التوبة، ص340، (الرياض، مكتبة العبيكان، 1426هـ).

⁽³¹⁾ العدوي، مصطفى، قصة من وصايا لقمان لابنه، ص76، (مصر، الدقهلية، مكتبة مكة، مطابع دار الصحافة).

على ما آتاه الله ومَنَحَه ووهبه من الفضل الذي خَصَّصَه به عَمَّن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه⁽³²⁾. كما يعني الشكر لله: (طاعته فيما أمر به)⁽³³⁾. ثم قال تعالى في الوصية بعدها: "ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه"، أي: (إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين...، وقوله "ومن كفر فإن الله غني حميد"، أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه)⁽³⁴⁾. والشكر هنا مقابل نعمة الحكمة التي وهبها الله له، فلا يُعصى الله بنعمه، كما أنَّ الشكر نفعه لصاحبه؛ (لأنَّ نفع ذلك وثوابه راجعٌ إليه، وفائدته حاصلةٌ له، إذ به تُستبقى النعمة، وبسببه يُستجلب المزيد لها من الله سبحانه)⁽³⁵⁾. وقد علَّمتنا نصوص القرآن الشكر لله لقاء كل النعم التي أنعمها الله على الإنسان سواء كانت النعمة خاصة به، أم عامة لجميع الناس، ففي حديث القرآن الذي بيَّن الله فيه للإنسان مكانته في هذا الكون لفت انتباهه أولاً لنعمة التسخير، ثم أرشده للتعامل الأمثل معه، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 14]. أي: (ولتشكروا ربكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه)⁽³⁶⁾. ويقول سبحانه في موضع آخر ممتناً على هذه النعمة المسداة للإنسان: ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجن: 13]. فكلُّ ما خلقه الله في الأرض فالقصد به هذا الإنسان المستخلف على تلك النعم، ففي معنى "جميعاً منه": (أي كلُّ ما خلق من وجوه الانتفاع بها كله منه سبحانه فما من شيء من الأعيان الظاهرة إلَّا ومن وجهٍ للإنسان به انتفاع.. وكلها منه سبحانه فالسما للسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد.. إلى غير ذلك. ومن الغبن أن يستسخرَك ما هو مسخر لك!، وليتأمل العبد كلَّ شيء)⁽³⁷⁾. وقد حوت الوصايا على أهم الأمور التي تنتظم بها علاقة الإنسان مع خالقه في باب التعريف بغاية وجوده ودوره مع الموجودات حوله.

(32) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (6/ 300).

(33) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (14/ 62).

(34) ابن كثير، تفسير القرآن، (6/ 300).

(35) خان، صديق حسن الفتوحي، فتح البيان في مقاصد القرآن، (10/ 282-283)، (بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1992).

(36) الطبري، جامع البيان، (21/ 78).

(37) القشيري، عبد الكريم هوازن، لطائف الإشارات، تفسير القشيري، المحقق: إبراهيم البسيوني، (3/ 391)، (ط3، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب).

ثانياً: الاهتمام بموضوعات العقيدة:

لقد اشتملت وصايا لقمان في الجانب الإنساني على تنظيم علاقته بربه من خلال اهتمامها بموضوعات العقيدة، حيث حذّرت من الشرك في قول لقمان: ﴿يَبْتَئِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]. لقد ذكّر الله لقمان (بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمة، وهو يُوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله ولا يُشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له إن الشرك لظلمٌ عظيم، أي هو أعظم الظلم)⁽³⁸⁾. وفي هذا من الدلالة ما لا يخفى على قيمة الإنسان في الإسلام واهتمام الشرع برعايته إيمانياً ودلالته شرعياً على الطريق العدل في هذه الحياة تجاه من خلقه وسخّر كونه له؛ ولذا سمى الله الشرك به ظلماً؛ (لأنّ الظلم عند العرب وضع الشيء في غير موضعه؛ لأنه كان يجب عليه الاعتراف بالعبودية والإقرار بالربوبية لله تعالى حين أخرجه من العدم إلى الوجود، وخلق من قبل لم يكن شيئاً، ومنّ عليه بالإسلام والصحة والرزق إلى سائر نعمه التي لا تُحصى)⁽³⁹⁾. وبقدر قرب الإنسان من الإيمان وتباعده عنه يقترب من الإنسانية ويبتعد، وهذا ملاحظ في المجتمعات التي لا تؤمن بالله تعالى، فإنها تفتقد إلى إنسانيتها وتنحدر في قيمها بقدر ابتعادها عن خالق الكون الذي رُسم للإنسان منظومته القيمية كاملة، (إذا كانت المظالم والأنانيات وحب الشهوات وغيرها تحصل بين المؤمنين بالله تعالى فما هو الظن بالمجتمعات التي لا تؤمن بالله رباً ولا بالإسلام ديناً ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، ولا ضمير حي يُذكرها بما للآخرين من حقوق)⁽⁴⁰⁾.

كما اشتملت وصايا لقمان في موضوعات العقيدة على الحديث عن قدرة الله التي لا يحدها شيء، فيقول فيها: ﴿يَبْتَئِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16]. وفي قوله: (يأت بها الله) تعبير عن علم الله وإحاطته لأدق الأشياء وقدرته على استخراجها، (وهذا مثل لأعمال العباد، والمراد أن الله تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿﴾ [الزلزلة: 7-

(38) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (6/ 300).

(39) ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، (8/ 569-570)، (ط2، الرياض، السعودية، مكتبة الرشد، 2003).

(40) عواجي، غالب بن علي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، (1/ 1015)، (ط1، جدة، المكتبة العصرية الذهبية، 2006).

[8]. (41) كما اشتملت الوصايا على قضية عقدية مهمة وهي قضية الرجوع لله سبحانه في قوله: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: 14]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 15]. أي: (إلى الله مصيرك أيها الإنسان، وهو سائلك عما كان من شكرك له على نعمه عليك، وعما كان من شكرك لوالديك، وبرك بهما على ما لقيتا منك من العناء والمشقة في حال طفولتك وصباك، وما اصطنعا إليك في برهما بك، وتحننهما عليك) (42). وهذه القضية الإيمانية من أهم القضايا الإنسانية التي تنظم علاقة الإنسان بربه، وبالكون من حوله، حيث يعد وضوح المصير من أقوى الضوابط لسلوك الإنسان وتوجيهه الوجهة النافعة له في نفسه وفي مجتمعه، فمن عرف أن الله سيبعثه، ولن يتركه في هذه الحياة هماً فإنه سيخافه وسيقف عند حدوده فلا يظلم أخيه الإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]. وإيمان الإنسان بحتمية الرجوع إلى الله من أقوى الأمور التي يتحقق بها العدل المجتمعي، ويستتب بها الأمن الأممي، ولا شيء غير الإيمان يستطيع حماية أمن الناس مهما شددت الدول أنظمتها الجزائية، وبذا يظهر اهتمام الإسلام الكبير بالإنسان فرداً ومجتمعاً في بنائه للسياس الإيماني والحصن الأمني عبر عقيدة الرجوع لخالق الكون.

(41) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، (432/3)، (ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1422 هـ).

(42) الطبري، جامع البيان، (18/ 551).

المطلب الثاني: بيان القرآن للقيم الإنسانية في علاقة الإنسان مع البشر.

أولاً: علاقة الإنسان مع والديه:

تُظهر قيمة الوصايا في الجانب الإنساني من ناحية اهتمامها بهذا الإنسان في سعي الآيات لتنظيم علاقته مع المجتمع من حوله، فالله سبحانه وتعالى حينما اختصه بخلافته في الأرض رعى الصورة الاجتماعية الأولى له في هذه الحياة، فاهتم بالأسرة المحضن الأول لهذا الإنسان، حيث ارتكزت وصايا لقمان أساساً على ذلك الحوار اللطيف بين الوالد وابنه الذي اجتهد فيه الأب "لقمان" بتعليم ابنه قضايا العقيدة والقيم الأخلاقية وسُبل التعايش المجتمعي عامةً. ويظهر من خلالها قيمة الوالد المرّبي وتوجيهاته، وقيمة المولود في الإسلام من خلال التوجّه له بحسن الرعاية والتأديب. وقد انقسمت الوصايا في هذا الجانب لقسمين **أولها** ما اتجه لتعليم الابن أمور دينه، و**ثانيها** ما اتجه لأمره بالبر بوالديه كما سيظهر في هذه الآيات: ففيها اهتمت بالوصايا الإيمانية توجه الوالد بالتأديب والتعليم لولده بقوله: (يا بني لا تشرك بالله)، وقوله: (يا بني إنها إن تك مثقال حبة)، وقوله: (يا بني أقم الصلاة)، حيث ارتكزت وصايا الوالد الحنون المشفق على بناء القيم الإيمانية والتشريعية وفق هذه التوجيهات الثلاث:

أولها: النهي عن أعظم الأمور الشرك بالله الذي لا يغفر الله لمن مات عليه، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

وثانيها: تقوية جانب الرقيب الذاتي لدى الابن، (يأت بها الله)، أي مهما فعلت يا بُني من أمورٍ خافية وأعمالٍ مستترة سيعلمها الله ويحاسبك عليها، وهذه الوصية من أعظم الوصايا التربوية، فالوالد لن يكون مرافقاً لولده طول الوقت؛ لذا يجب عليه تربيته على مراقبة الله وخشيته في الغيب والشهادة، حتى إذا غابت عين الوالد عنه كان لتربيته الإيمانية دورها الرادع.

وثالثها: أمر الابن بإقامة الصلاة التي يكون بإقامتها صلاحه وفلاحه، وبغض النظر عن مكانة الصلاة في شريعتنا التي هي عمود الواجبات الشرعية، والفارق بين المسلم والكافر، لكن الذي يُلَفِت الانتباه في أمر لقمان لابنه بها هو ارتباطها بالجانب الإنساني، (فالصلاة منهجٌ متناسق لتربية الفرد والمجتمع يصل بهما إلى قمة السمو الأخلاقي، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45])⁽⁴³⁾. كما جاءت الآيات الأخرى التي اهتمت بالوصايا في الجانب

(43) الأنصاري، عبد الرحمن بن محمد، معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه، ص 452، (مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، سنة 28، 1417-1418هـ).

الاجتماعي حائاً على البر والعناية بالوالدين، ومظهرةً بوضوح اهتمام الإسلام بالجانب الإنساني من خلال رعايتها لحقهما وتعظيم شأنهما في هذا الدين الإنساني، حيث تقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14]. (ووصينا الإنسان بوالديه)، في الآيات حثٌ على التعهد بحسن الرعاية وعظيم الامتنان لمن ربَّاه، ثم خصّت الوالدة التي حملته ضعفاً على ضعف مطالبة الإنسان بالشكر لله ولوالديه، حيث قرن بين حقه سبحانه وحق الوالدين، وقد ذكر سبحانه تحديداً (تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً؛ ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢١﴾ [الإسراء: 24]؛ ولهذا قال "أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير" أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء⁽⁴⁴⁾. وهذا الدين العظيم الذي التفت للمرأة وراعى ضعفها الإنساني الطبعي مطالباً برعاية حقها، لم يقصر اهتمامه بالوالدين على الأبوين المسلمين، فقد رعى حق الوالد حتى وإن كان كافراً؛ ليتبين أنه دين إنسانية حقيقة لا ادعاءً وواقعاً تطبيقياً لا شعارات مثالية خداعة، حيث تكتمل وصايا لقمان في هذا الجانب بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: 15]، فبيّنت الآيات حدود طاعة الوالدين بعد التوصية بحقهما والتي تتوقف عند أمرهما بمعصية الله سبحانه، فلا طاعة لهما في ذلك، مع مراعاة اللطف في المخالفة لكليهما، فقال: (وصاحبهما في الدنيا معروفاً) أي الصحبة بالحسن، وفي الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين والرفق بهما، كما في حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق حينما استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في استقبالها لأُمها، فقالت: "يا رسول الله، إن أُمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم، صليها"⁽⁴⁵⁾. وقد قيل إنها راغبة عن الإسلام⁽⁴⁶⁾. فأَيُّ دين التمس هذا الجانب الإنساني بين الأم وابنتها المختلفتين عقدياً والمتفقتين مشاعرياً، فراعى حقهما ووصى بدوام علاقتهما؟ إنه دين الرحمة الذي قال الله فيه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٧﴾ [الأنبياء: 107].

(44) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (6/ 301).

(45) البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، برقم: 3012، (3/ 1162).

(46) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (14/ 65).

ثانياً: علاقة الإنسان مع بني جنسه:

من الدلائل المهمة على اهتمام الإسلام بالجانب الإنساني في وصايا لقمان تحديداً التفات الأب لطبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع؛ لما لانتظام هذه العلاقة من إيجابية على الفرد والمجتمع، فالإنسان اجتماعي بطبعه، وفي اختلاطه الدائم بالناس تظهر الحاجة الملحة لرسم الضوابط الأخلاقية عند التعامل بين الطرفين حتى لا يتحول الاختلاط البشري إلى قانونٍ أشبه بالغاب يأكل القوي فيه حق الضعيف، وقد تعرّضت الثلاث الآيات الأخيرة من الوصايا لإرشاد الابن إلى الطريقة المثلى للتعامل مع الناس في قوله تعالى: ﴿يَكُنْ أَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨ وَأَقْصِدْ فِي مَسْئِكَ وَأَعْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 17-19]، حيث نُصح لقمان ابنه بعدة أمورٍ تنتج عن الخلطة مع الناس لا محالة، كأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر والصبر على ما يُصيبه من الناس جرأً نهيه لهم، فقال: ("وانه عن المنكر" أي: بحسب طاقتك وجهدك. "واصبر على ما أصابك": علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر. وقوله "إن ذلك من عزم الأمور" أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور).⁽⁴⁷⁾ والصبر فضيلةٌ خلقية مهمة للتعاشي الإنساني، وهو حلٌ ناجع للعديد مما يواجهه بني البشر في تعاملاتهم مع بعضهم، ولولا التحلي بهذا الخلق لانهدمت أو اضر الكثير من العلاقات الإنسانية؛ لذا أكثر سبحانه من الأمر بالصبر والتحلي به وامتداح أصحابه في عددٍ من الآيات منها: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ١٦﴾ [آل عمران: 146]، ومنها: ﴿وَأَصْبِرْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ١٦﴾ [الأنفال: 46].

ثم أكمل لقمان نصائحه المهمة على صعيد العلاقات الشخصية التي تهتم بالإنسان في نفسه وبالمجتمع من حوله الذين يتعرضون للأذى جرأً تجاوزه معهم أخلاقياً، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨ وَأَقْصِدْ فِي مَسْئِكَ وَأَعْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 18-19]، وقد ركزت هاتان الآيتان على خلقٍ اجتماعي مهم ألا وهو التواضع لله ومع الناس، ففي قوله: "ولا تصعر خدك للناس"، أي: (لا تتكبر عليهم فتعرض عنهم بوجهك وتحتقرهم، إذا هم كملوك أو عاملوك. وتُصعّر من الصعر، وهو ميلٌ في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشدقين)⁽⁴⁸⁾. كناية عن الكبر واستحقار الناس، (لكن ألن جانبك وابتسط وجهك

(47) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (6/ 302).

(48) البخاري، صحيح البخاري، برقم 42، (3/ 1261).

إليهم، كما جاء في الحديث: "وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَالْمَخِيلَةُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ"⁽⁴⁹⁾ (50). ثم أكملت الآيات وصف الإنسان المتكبر موضحةً لهيئة مشيته في الأرض، فقالت: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا: أي خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ يُبْغِضُكَ اللَّهُ؛ ولهذا قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، أي: مختالٍ معجبٍ في نفسه، فخورٌ أي: على غيره)⁽⁵¹⁾. واللَّهُ سبحانه يُبْغِضُ الْكِبْرَ بالنفس، فالكبرياء من صفاته سبحانه، والإنسان المؤمن إن أنعم الله عليه سبَّحَ بحمد ربه واعترف بفضلله كما تعرَّضنا له في طبيعة العلاقة مع خالق الموجودات جلَّ في علاه؛ لذا كرَّرَ اللَّهُ في كتابه النهي عن المشي بخيلاء مذكراً الإنسان المتعالي بطبيعته البشرية الضعيفة، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37]. أي: (إن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها، وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها فانت محاطٌ بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد، وأنت أضعف منهما بكثير، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له: تواضع ولا تتكبر فإنك خلقٌ ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي)⁽⁵²⁾. وقد أعادت الآيات هنا المتكبر لمكانه الصحيح من الكون مبينةً مكانته، ومذكرةً لهذا الإنسان بطبيعته البشرية التي تردعه عن التعالي المجنون المشاهد اليوم في محاولات اختراق الكون والادعاء بالقدرات العظيمة لدى البعض لسبر متاهاته.

ثم ختم لقمان وصاياه الأخلاقية بالأمر بالمشي المعتدل والخفض للصوت في أدب جم وخلقٍ أتمّ لن تجد الإشارة إليه إلا في دين سماوي راعى فيه الخالق الإنسان وهذبته أخلاقياً كما أدبه عقدياً وشرعياً، حيث يقول سبحانه على لسان لقمان لابنه: ("واقصد في مشيك"، أي: امش مقتصدًا مشياً ليس بالبطيء المتبسط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين)⁽⁵³⁾.

وفي إطار المنظومة الأخلاقية اهتم لقمان بكل ما يرتقي بهذه الشخصية الإنسانية، فأمره بغض صوته دلالةً على التواضع والأدب، وقال لابنه: "واغضض من صوتك"، أي: (لا تُبالغ في الكلام

⁽⁴⁹⁾ هذا النص في أبي داود، ط: دار هجر، برقم 1404، (533/2). وفي لفظ قريب للبخاري: (لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تغرق للمستسقي من دلوك في إنائه، أو تكلم أخاك ووجهك منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، ولا يحبها الله)، الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الألباني المفرد للإمام البخاري، تحقيق: الألباني، برقم: 562، ص 459-460، (ط4)، دار الصديق للنشر والتوزيع، 1997م).

⁽⁵⁰⁾ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (6/ 302).

⁽⁵¹⁾ المرجع نفسه، (6/ 303).

⁽⁵²⁾ الرازي، مفاتيح الغيب، (20/ 342).

⁽⁵³⁾ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (6/ 303).

ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير"، قال مجاهد وغير واحد: إن أفج الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يُشَبَّه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيضٌ إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم⁽⁵⁴⁾.

وهكذا فقد رأى القارئ أهمية وصايا لقمان ودورها الكبير في الإعلاء من شأن الإنسان حيث اهتمت بعلاقته بربه، ورسمت الطريق له في علاقته مع الناس ابتداءً بأسرته، ثم بالناس من حوله، وقد تتبع القارئ معي وصايا لقمان الإنسانية عقدياً وتشريعياً وأخلاقياً، تلك الوصايا التي خاطبت الإنسان بما فيه خير لنفسه وصالح لمجتمعه، مؤكدةً على الجانب الإنساني الرفيع في دين الإنسانية، وهذا الاهتمام بالجانب الأخلاقي ليس محصوراً في وصايا لقمان، بل هو من صميم الدين، حيث تُعد الأخلاق من أهم المقومات الحضارية لبناء مجتمع إنساني صالح. وتظهر أهميتها في كونها الغاية أساساً لبعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إنما بُعث لأتمم صالح الأخلاق)⁽⁵⁵⁾، كما وصف القرآن الكريم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأعلى أوصاف الثناء، فقال تعالى: ﴿وَلَئِكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. كما تظهر أهميتها في ارتباطها بالجانب الإيماني ابتداءً، فقد أتى القرآن منبهاً لذلك في وصية لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، ومن ثم فالشرك قضية عقدية إيمانية ربطه الله بالظلم فهو أشد أنواع الظلم للنفس، وللخالق الذي تكرر عليه بكل شيء. (وربط عليه الصلاة والسلام بين كمال الإيمان وحسن الخلق، فقال: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"⁽⁵⁶⁾).⁽⁵⁷⁾ وتظهر أهمية الأخلاق في ارتباطها بالجانب التشريعي العملي، حيث يقول الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103]؛ (ومن أجل ذلك وسَّع النبي صلى الله عليه وسلم في دلالة كلمة الصدقة فقال صلى الله عليه وسلم: "تبسمك في وجه أخيك لك صدقة"، وأمرك بالمعروف ونهيك عن

(54) المرجع نفسه.

(55) الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق: الألباني، برقم: 207، ص118.

(56) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، محمد عبد الباقي، برقم 1162، (458/3)، (2ط)، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، (1975). ويقول الألباني فيه: حديث حسن صحيح، في كتاب صحيح الترغيب والترهيب، برقم 1923، (2/ 409)، (1ط)، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (2000).

(57) ابن حميد، صالح، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، المقدمة، ص67، (4ط)، جدة، دار الوسيلة للنشر والتوزيع.

المنكر صدقة" (58) (59). كما أكد القرآن على دورها في صلاح النفس الإنسانية، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]. (وهذا يدل على أَنَّ الفلاح إنما هو تزكية النفس، وجميع الأعمال الصالحة من صلاحٍ وغيرها إنما هي لزكاة النفس وتطهيرها، حتى قضايا التوحيد كلها خلقية، فالاعتراف بأن الله إلهٌ واحدٌ هذا من الخلق الرفيع، وهو الاعتراف بفضل الله سبحانه، وردُّ الجميل له بالشكر. وكذلك العبادة قضيةٌ خلقية، فإذا نظرنا إلى المعاملات أيضاً، نجد أنها قضايا خلقية، فمثلاً عدم الغش في البيع، وهو موقفٌ خلقى، والقرض، ومثله الضمان، والحوالة، والصُّلح، والإجارة، والوديعة، وغيرها من المعاملات، فالدينُ كله مواقفٌ خلقية في الأساس؛ ولذلك كان غاية الدين التزكية، وتعلُّم العلم غايته العمل الصالح والأخلاق الرفيعة. والهدف من الأخلاق أن يصل إلى الكمال الإنساني الذي أرادَه الله سبحانه، فإذا تُرك بعيداً عن هداية الله، أصبح إنساناً غير سوي) (60).

وختاماً: فإنَّ مكانة الإنسان المتميزة في الإسلام تظهر بوضوح في دلالاته على الأخلاق القويمة وتكريمه بدعوته إلى معالي الأمور، وتساميه عن المادة، فالناظر لمقومات الحضارة في الإسلام يلحظ أنها روحية أكثر من كونها مادية، حيث يتحرر فيها الإنسان من كل أشكال العبودية لغير خالقه، وتُسود في مجتمعاته القيم الإنسانية التي تُنمي فيه إنسانيته، وتكوّن المبادئ الخلقية هي أساس الروابط بين الناس دون تضخيم للروابط الأخرى الاجتماعية أو القومية أو غيرها.

(58) الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، (339/4)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم 2685، (20/3).

(59) عبد الرحمن، ياسر، موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق: قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابه والتابعين والصالحين، (6/1)، (ط1)، القاهرة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، (2007).

(60) الخراز، خالد جمعة، موسوعة الأخلاق، ص38-39.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبِعونه تُدَوَّن الملاحظات، حيثُ خَرَجَ البحثُ بِالنَتَائِجِ
الآتية:

- 1- اشتغال وصايا لقمان على أهم الأمور التي تُبرز مكانة الإنسان على هذه الأرض وفق الرؤية القرآنية.
- 2- إبراز الوصايا لأهم القيم الإنسانية المنظَّمة لعلاقة الإنسان مع الله تعالى، ومع البشر، ومع الكون من حوله.

كما ركَّزَ البحثُ على التوصيات الآتية:

- 1- تفعيل وصايا لقمان في المقررات الدراسية التربوية؛ كونها نزلت في كتاب الله المحكم في نصّه وعرضه.
- 2- العمل على إبراز مكانة الإنسان في الإسلام من خلال التشريعات الربانية المخاطبة له في القرآن والسنة، والمقارنة بينها وبين تشريعات الدول في هذا الإطار؛ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33-34].

المراجع

أولاً: الكتب.

- 1- ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، (ط2، الرياض، السعودية، مكتبة الرشد، 2003).
- 2- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، (ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1422 هـ).
- 3- ابن حميد، صالح، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، (ط4، جدة، دار الوسيلة للنشر والتوزيع).
- 4- ابن عطية، عبد الحق الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام محمد، (ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422 هـ).
- 5- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، تأويل مختلف الحديث، (ط2، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراف، 1999).
- 6- ابن كثير، إسماعيل عمر، تفسير القرآن العظيم، (ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1998).
- 7- ابن كثير، إسماعيل، قصص الأنبياء من البداية والنهاية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (ط1، القاهرة، مطبعة دار التأليف، 1968).
- 8- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق: الألباني، (ط4، دار الصديق للنشر والتوزيع، 1997م).
- 9- الألباني، ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، (ط1، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2000).
- 10- البخاري، محمد إسماعيل، صحيح البخاري، المحقق: مصطفى البغا، برقم 42، (1261/3)، (ط5، دمشق، دار ابن كثير، دار اليمامة، 1993).
- 11- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، محمد عبد الباقي، (ط2، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975).
- 12- الحصري، إبراهيم علي، زهر الآداب وثمر الألباب، (140/1)، (بيروت، دار الجيل).

- 13- الخراز، خالد جمعة، موسوعة الأخلاق، (ط1، الكويت، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، 2009).
- 14- الزجاج، إبراهيم السري، معاني القرآن وإعرابه، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، (195/4)، (ط1، بيروت، عالم الكتب، 1988).
- 15- السخاوي، علم الدين، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: موسى مسعود، أشرف القصاص، (ط1، دار النشر للجامعات، 2009).
- 16- الطبري، محمد جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، (ط1، القاهرة، مصر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 2001).
- 17- الطحاوي، أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (ط1، مؤسسة الرسالة، 1994).
- 18- العدوي، مصطفى، قصة من وصايا لقمان لابنه، (مصر، الدقهلية، مكتبة مكة، مطابع دار الصحيفة).
- 19- الفخر الرازي، محمد بن عمر التيمي، مفاتيح الغيب، (ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420).
- 20- القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1964).
- 21- القشيري، عبد الكريم، لطائف الإشارات، تفسير القشيري، المحقق: إبراهيم البسيوني، (ط3، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب).
- 22- الماوردي، علي البغدادي، تفسير الماوردي: النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية).
- 23- بوكانن، باتريك جيه، موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، نقله للعربية: محمد التوبة، ص340، (الرياض، مكتبة العبيكان، 1426هـ).
- 24- خان، صديق حسن القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، (بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1992).
- 25- داماد، مصطفى محقق، الحقوق الإنسانية بين الإسلام والمجتمع المدني، (ط1، بيروت، لبنان، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2001).

- 26- عبد الرحمن، ياسر، موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق: قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين، (ط1، القاهرة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، 2007).
- 27- عواجي، غالب بن علي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، (ط1، جدة، المكتبة العصرية الذهبية، 2006).
- 28- فرانكل، فكتور، الإنسان يبحث عن المعنى: مقدمة في العلاج بالمعنى، التسامي بالنفس، ترجمة: طلعت منصور، (ط1، الكويت، دار القلم، 1982).
- 29- كاسيرر، أرنست، مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمة: إحسان عباس، (بيروت، دار الأندلس، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ببيروت ونيويورك، 1961).
- 30- كاريل، ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، تعريب: شفيق فريد، (ط3، بيروت، مكتبة المعارف، 1980).

ثانياً: الرسائل العلمية.

لقمان الحكيم في ضوء الكتاب والسنة، عبد الله الغامدي، رسالة ماجستير، فرع الكتاب والسنة من قسم الدراسات العليا الشرعية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1982م.

ثالثاً: الدوريات.

- 1- الأنصاري، عبد الرحمن بن محمد، معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه، (مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، سنة 28، 1417-1418هـ).
- 2- دسة، جعفر عايد، وصايا لقمان لابنه في القرآن الكريم: الدلالات والآثار، ص57، (مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، م:3، ع:7، 2023).
- 3- شبلي، هجيرة، التربية القرآنية للإنسان والدفع الحضاري: عقيدة تكريم الإنسان وتضميناتها التربوية عند عبد المجيد النجار أنموذجاً، (مجلة إسلامية المعرفة، س:22، ع:87، شتاء 2017).
- 4- متولي، محمد عبد العزيز، الإنسانية في ضوء السنة النبوية: دراسة تأصيلية تطبيقية، ص309، (مجلة كلية الدراسات الإسلامية، دمنهور، ع:7، الإصدار:2، م:4، 2022).

5- محمد، أحمد جمعة، الكرامة الإنسانية في التصور الإسلامي وتطبيقاتها الفقهية: دراسة مقارنة، (بحث مدعوم من خلال البرنامج البحثي العام بعمادة البحث العلمي، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية).

6- محمود، هناء فرغلي، الأبعاد التربوية لآيات الحوار الأسري في القرآن الكريم: دراسة تحليلية، (مجلة كلية التربية، جامعة أسيوط، ع:49، ديسمبر 2021).



مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة دولية شهرية علمية محكمة
الترقيم الدولي الإلكتروني : ISSN : 2410- 521X
الترقيم الدولي الورقي : ISSN : 2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلة مفهرسة في المواقع الآتية :



2024	2023	2022	2021	2020	العام
0.3068	0.3759	0.1954	0.2692	0.0366	معامل أرسيف
1.55	1.25	1.73	1.60	1.60	معامل التأثير العربي